بعض الذكرى . . . !

للأستاذ محمود محمد شاكر

كان ذلك منذ عشرين سنة ، وكنت فتى لا يملُّ الدُّؤوب والسعي ، وكانت أول مرة أدخل فيها بيت ذلك الشيخ[1] الضئيل البدن المعروق اللحم ، الذى ينظر إليك أبداً كالمتعجب . وكان الذى سعى بى إليه حبٌّ قد ملأ قلبى له ، وإجلال قد أخذ علىَّ المهد أن أفى لهذا الشيخ ما حييت وفاء الذكرى ووفاء العلم ووفاء الاقتداء؛ وكنت يومئذ قد حضرت بعض دروسه فى مسجد البرقوق ، وقرأت عليه شيئاً من كتاب أبى العباس المبرّد ، وكان يعدُّنى كبعض ولده لسابق معرفته بأبى رحمهما الله . وكنت يومئذ سقيم الجسم خفيف اللحم نحيل التجاليد ثائر الشَّعر ، فإذا لقيته فربما كان يقول لى : « كأنك آيبٌ من سفر بعيد أيها الفتى » . فكنت أفهم عنه ، فإذا انقلبت إلى الدار عدوت إلى المرآة لأرى ماذا حمل الشيخ على مقالته التى لم يزل يقولها لى ويدى على يده أو فى يده ، فما أرى سوى وجه شاحب ضامر ، وعينين غائرتين كأنهما تنظران إلى شىء بعيد فى جوف وادٍ سحيق عميق . فأقول لنفسى : هذا جُهْد التحصيل وكَدُّ النفس فى قراءة هذه الأسفار القديمة التى تباعدت معانيها وتقادمت عهودها .

طرقتُ بابه فى ذلك اليوم على غير ميعاد ، ففتح لى صغير من حَفَدته وقادنى إلى غرفة الشيخ ، فإذا هو جالس على حشيّة على بساط كالح من تقادم الأيام ، وعلى يمينه خزانة كتب مطويّة فى جوف الجدار ، وأمامه صينيّة صفراء من نحاس فيها أداة القهوة ، وعلى يساره كتب مركومة ، وفى يمناه قلم يكتب . فلما سمع حسّى رفع إلىّ بصره وسكن ، وظلّ كذلك ساعة وأنا بين يديه يأخذنى ما قرُب وما بَعُد من هيبته ، وجعل ينظر إلىّ فأطال النظر ؛ ثم لم يلبث أن قال بصوت خافت ما كنت لأتبينه لولا أنى عرفت الذى يقول وكنت أحفظه ، وهى هذه الأبيات من شعر بعض الأعراب :

رأت نِضْوَ أسفارٍ ، أُمَيْمة ، شاحباً
على نضو أسفارٍ ، فجُنَّ جنونها[1]
فقالت : « مِن أىِّ الناس أنت ؟ ومن تكن ؟
فإنك راعى صِرْمةٍ لا تَزِينُها[2] ! »
فقلت لها : « ليس الشُّحوبُ على الفتى
بعارٍ ، ولا خيرُ الرجال سمينها .
« عليك براعى ثَلَّة مُسْلَحِبَّة
يَرُوحُ عليه مَحْضُها وحَقِينُها[3]
« سمين الضَّواحى ، لم تؤرِّقه ليلةً
— وأنعمَ — أبكارُ الهموم وعُونُها[4] »

وكان الشيخ حسنَ التقسيم للشعر حين يقرؤه ، فيقف حيث ينبغى الوقوف ، ويمضى حيث تتصل المعانى ، فإذا سمعت الشعرَ وهو يقرؤه فهمته على ما فيه من غريب أو غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض ، فكأنه يمثله لك تمثيلا لا تحتاج بعده إلى شرح أو توقيف . وكان فى صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والاقتدار ، وفى نبراته حين ينشد الشعر معنى الفهم للذى يتلوه عليك ، فلا تكاد تخطىء المعانى التى ينطوى عليها ، لأنها عندئذ ممثلة لك فى صوته . والصوت الإنسانىّ هو وحده القادر على الإبانة عن المعانى الخفية المستكنّة فى طوايا النفوس أو فى أحاديث النفوس .

---

(١) هو إمام العربية وحامل أمانتها شيخنا وأستاذنا سيد بن على المرصفى رحمه الله .

---

(١) نضو أسفار : مهزول قد أذابت لحمه الأسفار ولوحته البيد . يعنى بالأول نفسه ، وبالثانى بعيره

(٢) الصرمة القطيع من الابل والغنم .

(٣) الثلة . جماعة الغنم . مسلحبة : أى منبطحة فى مراعيها قد اطمأنت شبعاً ورياً . والمحض : اللبن الذى يستهلك فيه زبده فلا يكاد يخرج منه زبد ، وهذا أطيب ألبان الغنم وأمرؤها على البدن . والحقين : هو اللبن يجمع فى السقاء ويصب رائبه على حليبه ، فهو غذاء حسن ، وذلك كله كناية عن طيب مطعم هذا الراعى وحسن مشربه ، فهو فى خفض ونعمة

(٤) الضواحى : ما برز من الانسان كالمنكبين والكتفين ، يريد ممتلىء البدن من الراحة والدعة وسكون النفس . والأبكار : جمع بكر ، وهى المرأة لم تتزوج بعد . والعون : جمع عوان ، وهى المرأة كان لها قبل ذلك زوج . أما قوله : « وأنعم » فهى كلمة معترضة أراد بها أن قد طال على ذلك الراعى ما هو فيه من خفض ورغد وراحة ورفاهية حتى ربا وسمن وزاد ، فلم يشغله شىء يضنيه أو يأكل من بدنه .

وربّ رجل أو امرأة تسمع كلامه أو كلامها وأنت لا تعرف عن أحدهما شيئاً ، فيخيّل إليك وأنت تسمع أنك قد نفذت على نبرات هذا الصوت إلى أعمق الأعماق المدفونة فى هذه النفس الإنسانية التى تحادثك ، وهذا شىء لا يكون إلا فى ذوى النفوس الصادقة الصافية البريئة من حشو الحياة وسفسافها ، وهذه النفوس وحدها هى القادرة على أن تجعل الصوت بمجرّده لغة مبينة عن أغمض المعانى التى تعجزُ لغات البشر عن حملها وأدائها .

وأنت محتاج حين تسمع « لغة الصوت » أن تكون يقظ النفس نمىّ الإحساس ، نفّاذاً إلى المعانى المتلفّعة بالغموض ، حسن التيقظ للنبرات التى تدل على ضمير اللفظ ، سريع الخاطر فى إدراك هذا الموج المتلاحق من الحركات المختلفة . فإذا كان الذى تسمعه كلاماً يُتلى أو يُنشد كالشعر مثلا ، وكان الذى ينشده قد عاش ساعة فى معانيه حتى تلبّس بها ونطق لسانه معبّراً عن لسانها وعن لسان قائلها الأول — كان عليك أن تكون ليّناً طيّعاً سريع التبدّل جرىء النفس فى غمرات المواطف ، حتى يتاح لك أن تعيش أنت نفسك فى هذه المعانى ساعة تتلى عليك . وعندئذ تنشاك غمرة لذيذة تدبُّ فى غضون نفسك ، فتحسُّ كأنك تُبعث بعثاً جديداً فى حياة جديدة حافلة بالصُّور التى قلما يدركها العقل إلا مُشوَّهة مُشيَّأة متخالفة التركيب ، فلا يزال يجهدُ فى تلفيق أجزائها حتى لا يبقى من أصولها الحيّة الصريحة الصادقة شىء ألبتة . فإن استطعت يوماً أن تجد فى نفسك أنك مستطيع أن تكون على هذه الصفة ، فقد فهمت الشعر ونفذت إلى أغواره ، وإن عجزت عن بيان ما فيه .

وفى الناس ناسٌ ، وقليلٌ ما هم ، قد أجادوا « لغة الصوت » إجادة بارعة ، وإن كانوا فى أكثر الأحيان لا يدركون أنهم يحسنون منها شيئاً ، وذلك لطول ما انطووا على أنفسهم حتى غمروها فى بحر النسيان . وربما سمعتَ أحدهم وهو يتكلم ، فما يكاد ينطق حرفاً أو حرفين حتى تحسّ كأن كل معانى نفسه تتسرّبُ فى نفسك واضحة بيّنة ، وأنك قد عرفت منه ما يكاد يخفيه عن الناس جميعاً ؛ لأنه متكبر أو قانط أوهيّاب جزوع .

وهذا الضرب من الناس هم أشد خلق الله حرصاً على إخفاء آلامهم ، وأبعدهم رغبة فى الاستمتاع بالعذاب الذى يقاسونه ، لأنهم يظنون أنهم بذلك قد حازوا النصر على آلامهم ، وعلى الناس أيضاً ؛ إذ استطاعوا أن يواروا عنهم خبء ما فى نفوسهم الحزينة المعذبة ...

* * *

لما سمعتُ الشيخ رحمه الله ينشد تلك الأبيات ، تمثّلت لعينى تلك المأساة الخالدة بين الرجل الصادق والمرأة التى أحبّها ، وكانت تطمع أن يكون لها كما خيّلت لها أوهامها ، وأن يأتيها بتحقيق أحلامها — أى أحلام حواء منذ كانت حواء ، على اختلاف العصور وتباين الحضارات . فهذا أعرابىّ يحب لصاحبته « أميمة » التى ذكرها فى شعره ، فدارت به الأيام فى فيافى الحياة ملتمساً ما يحقق به أمانى هذه المرأة المحبوبة ، ثم عاد إليها وقد أذابت البيد منه ما أذابت بظمئها وشمسها وجوعها ومخاوفها . فلما رأته شاحباً مهزولا رثّ الثياب أسوأ حالا مما عهدته ، أنكرته وقد أثبتته معرفة ، فجنّ جنونها لأنها محبة قد أخطأت فى الرجل الذى تحبُّ كل ما كانت تؤمله ، وخالها ما كانت تتمثله فى أحلامها من صحة وشباب وأناقة وجمال . وما أسرع ما تتنكر المرأة إذا خاب ظنها وتبددت أحلامها ، وفاجأتها الحقيقة العارية بالشىء الذى يخالف ما كانت تتوهم !

كانت المفاجأة صارخة فى نفس أميمة ، فلم تلبث أن غلبتها تلك الطبيعة المتقلّبة الغدّارة التى طال عهد المرأة بها ، فأظهرت كأنها لا تعرفه ولم تلقَه ساعة من دهر . وجرى على لسانها ذلك الحديث الذى يرويه لنا المحبّ ، فقالت : مِنَ أىّ الناس أنت ؟ ولم تقف عند هذا فأبدت الفزع منه لئلا يخونها ما فى حنايا ضلوعها فيظهر على لسانها فعادت تقول : ومن تكُنْ ؟ ولكن أنّى للمرأة الضعيفة التى زلزلت المفاجأة بُنيانها أن تكتم حقيقة نفسها ؟ لقد كانت منذ هنيهة تسأله سؤال الجاهل من هو ومن يكون ، فإذا بها تنهار من شدة ما تعانى من اهتزاز كيانها ، فتقول له مقالة الناقد الساخر ، محاولة أن تبدى عن احتقارها وازدرائها لما ترى ، فزوَت عنه وجهها وهى تقول : لو كنت

راعيَ إبل لكنت خليقاً أن تنكر النفوسُ والأعيُن ما ترى من حقارتك وبذاذتك ، فكيف ترجو أيها المحب المغرور أن تكون حسناً في عين من تحبُّ ، وأن تكون زيناً لامرأة أحبتك ؟ وهكذا المرأة — إلا من عصم الله ...

فهم الشاعر المحبُّ مرمى كلامها فأنف لنفسه ، فانطلق يسخر منها بعد أن تكشَّف له ضمير المرأة النادرة . فقال لها : ليس الشحوب على الفتى بعارٍ ولا خيرَ الرجال سمينها ، وإذا كان شحوبي قد ساءك وآذاك حتى أنكرت مني ما تعرفين ، فنعم ولك المُثني عليّ . عليك بمن يزينك . اطلبي لنفسك راعي غنم قد اطمأنت به وبها الحياة ، فعاش خافضاً وادعاً لا همّ له إلا بطنه ، حتى امتلأ وتضلّع وغدا سميناً بضاً جميلا كأحسن ما تأملين ، فأنتن أيتها النسوة إنما تحببن من الرجال الزينة وجدها ، كأنكنّ إنما تتخذن الرجال حلياً لا أصحاباً ولا أزواجاً .
وهكذا المرأة ، هي لضعفها تؤثر لحياتها كلَّ ظاهر يدلُّ على القوة فهي تؤثر البدن القوى على البدن الضعيف ، وتؤثر اليسر على الخصاصة ، وتؤثر القناعة على الطموح ، وإن كان قلبها يؤثر بالحب ذلك الضعيف الفقير الطمّاح الذي أضرَّ به الكدح ، ولكن قلب المرأة هو آخر ما تهتم له إذا جاءها بمن لا ترضاه لحياتها ؛ فالمرأة مفتونة بكل مايدل على القوة الظاهرة ، ولا تكاد تبالي شيئاً بالقوة المستكنّة كالعلم والعقل والجهاد والصبر ؛ لأنها تريد أن تحيا حياة مطمئنة محفوفة بما يحسدها عليه النساء سواها لا أن تحيا مجاهدة في عذاب حبيب مجاهد .

ومنذ سمعتُ الشيخ ينشد تلك الأبيات ، وقفتُ على كلمة في هذا الشعر لاأزال أعجب لها وهي : «أبكارُ الهموم وعُونُها» «أبكار الهموم» ! يا لها من كلمة عبقرية ! إن مزيّة هؤلاء الأعراب البُداة على سائر من نطق بالعربية هي هذه الجرأة العجيبة التي تنقضُّ على اللغة فتنفضُها نفضاً وتختار من ألفاظها كلمة تضعها حيث تشاء ، فلا تراها تقلق في مكانها أو تضطرب ، وهم بذلك يختصرون المعاني كلها في كلمة واحدة يخبأون فيها أحلامهم وخيالهم وأحاسيسهم وأسرار قلوبهم ، كما خبأ هذا الأعرابي كل ما كان في نفسه في «أبكار» ، ودلَّ بها على المعاني التي كانت تضطرم في قلبه حتى أضنته ومسحت وجهه بالشحوب ، وعرقت لحمه بالهزال ، وصيّرته إنساناً مُنكراً في عين من يُحب .

فهذا الأعرابيُّ الجرىء ، والمحب المزدَرَى ، والساخر المستخفُّ عندئذ بالناس وبالنساء وبالحياة ، قد أراد أن يُعلِّمَ «أميمته» الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأً غضاً ناضراً ناعماً لم تؤرِّقه هموم النفس ولم يُضرَّ به الكدح في بوادي الأحلام والآلام والآمال ، فإنه غنيٌّ عنها ، وعن سائر نساء العالمين — وأن أمثالها لسنَ له بهمّ ، وأن له من حاجات نفسه وهمومها «أبكاراً» كأبكار النساء و «عوناً» كعونها ، فهو راضٍ بها وبما يلقى في سبيلها من أرقٍ وسُهادٍ . وأراد أن يُعلمها أنه لا يأسى على ما فاته من بِكرٍ ولا عوانٍ ، فإن للنفس الشاعرة هموماً «أبكاراً» لم تمسسها يدٌ ولا فكرٌ ولا حُلُم ، تجد النفس المحبة فيها ما يجد المحبُّ في العذراء الحييّة العصيّة من فتنة وجمال ونضرة وشباب ، ولا يزال يداورها ويحاورها ويشقى بالسعي في طِلابها شقاءً لذيذاً له في القلب نشوة أو سُعار . وهي «أبكار» لا تزال عذراء على وجه الدهر لا تغيِّر منها الأيام شيئاً ، ولا تُنيلُ الطالبَ المحبَّ إلا متاع الحبِّ المجرد من شهوات الأبدان ، بل هي تغتذى بالأبدان فتضنيها وتنهكها لتبقى هي أبداً أبكاراً .

وللنفس أيضاً هموم «عُون» قد أصاب الناس منها ما أصابوا ، ولكن بقيت منها للنفوس الشاعرة بقية فاتنة بما فيها من دلال وكبرياء وقدرة على الامتناع عند الإمكان ، ونُبْل في الخضوع والتسليم عند العجز ، فهي تداور صاحبها وتحاوره حتى تشقيه شقاءً لذيذاً ثم تنيله ما يشاء حتى يرضى .

ولقد عجبتُ للشيخ يومئذ وهو يكرّر : «لم تؤرّقه ليلة — وأنعمَ — أبكارُ الهموم وعُونها» فقد كانَ في صوته ما جعلني أنتبه أني لم أزل واقفاً أنصتُ لدبيب هذه الحياة في جوّ الفرقة ، ثم خرجتُ من عنده ولا يزالُ صَدى صوته يردّد في نفسي تلك الكلمات المصوَّرة المبدعة : «أبكارُ الهموم وعُونها» .

محمود محمد شاكر